الكانيبالية في مصر خلال العصور الوسطى
دراسة تاريخية عن انحراف غريزة الغذاء
1200 – 1202 م

د. أشرف صالح محمد سيد كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن رشد – هولندا

تمهيد:

انتشرت عادة الكانيبالية (أكل لحوم البشر) لدى عدد كبير من الشعوب البدائية وغيرها، وقد اختلفت طرائقها ومظاهرها اختلافًا كبيرًا باختلاف الشعوب التي أخذت بها؛[1] ففي بعضها كان يؤكل جميع أجزاء الجسم الإنساني ما عدا العظام، بينما كان آخرون لا يأكلون إلا أجزاء خاصة من الجسم كالقلب والكبد والكليتين. وفي بعضها كان يقتصر على جثث المتوفين والمحتضرين من الناس، بينما كان آخرون يفترسون كذلك الأحياء أنفسهم ويأكلون لحومهم.[2]

وفي بعضها كان يقتصر على أكل جنس الذكور أو جنس الإناث، أو على أكل الآدمي في مرحلة خاصة من مراحل العمر كالطفولة والشيخوخة؛ بينما كان آخرون لا يفرقون بين جنس وجنس ولا بين مرحلة وأخرى. وكان البعض لا يسمح بأكل لحوم البشر إلا للذكور، أما الإناث فكان هذا النوع من الطعام محرمًا عليهن إلا في حالات خاصة حددتها التقاليد، وكان البعض لا يسمح بذلك إلا للعجائز من الذكور والإناث، ولكن عند معظم آكلي لحوم البشر كان ذلك مباحًا للجنسين على السواء في مختلف مراحل العمر.[3]

واقتصرت الكانيبالية لدى البعض على أكل لحوم الأعداء وأسرى الحرب والأجانب عن القبيلة، وفي بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأقرباء، وأحيانًا كان الغالب أن يكون المأكول من الأجانب؛ بينما كان آخرون لا يفرقون بين قريب وبعيد، وفي بعض هذه الشعوب تبدو هذه العادة طبعًا أصيلاً من طباع أهلها، فكان الإنسان عندها في عداد الحيوانات مأكولة اللحم، بل كان عند كثير منها من أزكى هذه الحيوانات طعامًا، وألذها مذاقًا.[4]

البعض لا يمارسون الكانيبالية إلا في مناسبات خاصة كالمناسبات الدينية وما إليها، بينما كان آخرون لا يلجؤون إلى ذلك إلا نتيجة لعدم وجود غذاء حيواني آخر، ولندرة هذا النوع من الغذاء، أو لحدوث قحط وجدب، فتوالي المجاعات وإقفار منطقة من غذاء حيواني كاف هو الذي يؤدي –في رأي البعض- إلى نشأة هذه العادة.[5]

الإطار المنهجي للدراسة:

يُعَدّ موضوع الكوارث الطبيعية وانعكاساتها في ذهنية وسلوك إنسان العصر الوسيط، من المناطق البحثية المعتمة التي لم يسبر غورها بشكل عميق في الدراسات التاريخية العربية، خاصةً أن الموضوع يمثل حوارًا جديًا بين تاريخ الطبيعة وتاريخ الإنسان، ويكشف عن سقف التفاعل بين المتغيرات المناخية والإفرازات السلوكية والذهنية للإنسان، كما أنه يُعَدّ وبكل المقاييس موضوع إشكاليًا مفعمًا بالمطبّات التي تمتزج فيها ندرة المتون النصية بالتعقيدات المنهجية التي تفرضها طبيعة موضوع بهذه الشاكلة.[6]

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى استكشاف ظاهرة الكانيبالية في مصر خلال العصور الوسطى، لإيضاح أبعادها، ومعرفة سماتها، وآثارها على المجتمع في عصر الدولة الأيوبية، وما ترتب عليها خلال فترة المجاعة (1200 – 1202م)، بالإضافة إلى تحديد بدايتها ومراحل تطورها.

---

(1) محمود سامي، "النمنمية: أكل لحوم البشر".- مجلة الهلال (القاهرة).- ع9 يوليو 1929. ص1057.

(2) علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم والتقاليد والعادات.- القاهرة: نهضة مصر، 2000. ص146.

(3) علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم، ص147.

(4) علي عبد الواحد وافي، "أكل لحوم البشر وعوامل نشأته".- رسالة الإسلام (مصر).- السنة (11) ع2 أبريل 1959. ص152 – 157.

(5) علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم، ص148.

(6) إبراهيم القادري بوتشيش، كلمة تقديم كتاب "الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس"/ تأليف: عبد الهادي البياض.- بيروت: دار الطليعة، 2008. ص7.

مصطلحات الدراسة:

الكانيبالية/ الكانيباليزم (Cannibalism): مصطلح يطلق على فعل أو ممارسة البشر الذين يأكلون اللحم الآدمي أو الأعضاء الداخلية للبشر الآخرين، أي أن الكائن يأكل كائنًا من جنسه. وأصل المصطلح كلمة "كاريب" (Caribs) وهي اسم قبيلة هندية كانت تقطن جنوب أمريكا، وكان أفرادها يأكلون لحوم الآدميين.[1]

غريزة الغذاء: هي استعداد فطري يدفع الحيوان صغيره وكبيره إلى طلب قوته، وتختلف مظاهر هذا الاستعداد في أصناف الحيوانات بحسب اختلافها في تكوينها الجسمي الظاهري والباطني، وفي بيئتها الإقليمية والأسرية والاجتماعية، وفي نوع الغذاء الصالح لها.[2] ويعتبر الغذاء (الطعام) من الحاجات الإنسانية الفسيولوجية الأساسية اللازمة للحفاظ على الفرد، وإذا لم تشبع فإنها ستصبح دوافع مسيطرة، يتولد عنه اضطراب في السلوك العام للفرد إذ يصبح في حالة قلق وعدم استقرار وتوتر، ولا يعود إلى حالته الطبيعية إلا بعد إشباع النقص الحاصل في أي حاجة من الحاجات.[3]

المجاعة: نقص حاد في الغذاء في منطقة معينة نتيجة لنقص إمدادات الماء، وعجز الأرض عن الإنبات أو إصابة محصول غذائي بالأمراض، وهي حالة مؤقته يمكن أن تزول بزوال السبب المؤثر.[4]

مُقَدِّمة

ارتبطت مصر منذ فجر التاريخ بنهر النيل الذي لعب دورًا رئيسًا في تحديد قسمات أول حكومة مركزية في العالم، ولم يتوقف النيل عن ممارسة دوره الفاعل خلال العصر الإسلامي، ذلك أن مصر كانت بلدًا زراعيًا، تتوقف فيه كل مظاهر الحياة على طبيعة النهر الفيضية الموسمية. وكان التغير في مستوى الفيضان سواء بالنقص أو الارتفاع الجامح يعيد إلى الذاكرة الجمعية قصة السبع سنوات العجاف التي وردت في سورة يوسف.[5]

وارتبطت المجاعات والطواعين في العصرين الفاطمي والأيوبي بانخفاض النيل،[6] فقد اعتمدت مصر في حياتها الاقتصادية – طوال تاريخها- على الزراعة بوجه خاص، فاشتغل غالبية أهلها بالزراعة لوجود نهر النيل، وعلى الإنتاج الزراعي عاش معظم سكانها،[7] وعن طريقها تحسنت أحوالهم المعاشية، ومن دونها يعم الجوع والبلاء بدليل الأزمات الاقتصادية التي مرت بها زمن الأيوبيين نتيجة انخفاض فيضان النيل.[8]

فقد شهد عهد السلطان العادل الأيوبي (596 – 615هـ/ 1999 – 1218م) سلسلة من المجاعات بدأت في السنوات الأولى من تسلم الملك العادل للسلطة، فقد وصف المؤرخون الحالة بأوصاف تقشعر منها الأبدان مما وصل إليه الناس،[9] ففي سنة (596هـ/ 1199م) لم يستكمل النيل أربعة عشر ذراعًا، لذلك لم يسق إلا جزءًا بسيطًا جدًا من الأرض، وهو ما سبب الغلاء، وندرة الغلات،[10] وارتفاع سعر الطعام، وعمت البلاد المجاعة والقحط، وانتشر على أثر ذلك الوباء.[11]

وفي العام التالي (597هـ/ 1200م)، توقف النيل عن الزيادة قبل الوفاء، وثبت على اثنى عشر ذراعًا، ولم يزد بعد ذلك شيئًا من

---

(1)"Cannibalism (Human Behavior)".-Britannica Online Encyclopedia (www.britannica.com). Retrieved April 3, 2017.

(2) علي عبد الواحد وافي، "الغريزة: أمثلة من الغرائز".- صحيفة دار العلوم (القاهرة).- الإصدار الثاني، السنة (1) ع1 يونيو 1934. ص88.

(3) راجع: عبد الله أبو زعيزع، نظريات الإرشاد والعلاج النفسي: مدخل تحليلي.- عمان: مركز ديبونو لتعلم التفكير، 2011. ص146.

(4) محمد نور الدين السبعاوي، اتجاهات حديثة في الجغرافيا الطبية.- القاهرة: المكتب العربي للمعارف، 2015. ص160.

(5) أحمد السيد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية: أسباب ونتائج.- بيروت: دار التضامن، 1988. ص9.

(6) نيل دي. ماكنزي، القاهرة الأيوبية: دراسة طبوغرافية/ ترجمة: عثمان مصطفى عثمان.- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2007. ص171.

(7) ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت. 779هـ/ 1377م)، رحلة ابن بطوطة/ تحقيق: كرم البستاني.- بيروت: دار صادر، 1992. ص40.

(8) صلاح حسن محمد الطائي، أثر الشام الحضاري في مصر في العصر الأيوبي.- عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2014. ص103 – 104.

(9) وليد هادي صايل العيساوي، الملك العادل سيف الدين أبو بكر وجهوده في بناء الدولة الأيوبية (1174 – 1218م)، أطروحة ماجستير إشراف: أنور عودة الخالدي، جامعة آل البيت، عمان 2016. ص52.

(10) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت. ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب/ تحقيق: جمال الدين الشيال.- القاهرة، 1953. (ج3/ ص115). ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت. 807هـ/ 1404م)، تاريخ ابن الفرات/ تحقيق: حسن محمد الشماع.- بغداد: جامعة بغداد، 1970. (مج4/ ج2/ ص182).

(11) المقريزي، إغاثة الأمة/ تحقيق: محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيال.- القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2002. ص29. الذهبي، دول الإسلام/ تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم.- القاهرة، 1974. (ج2/ ص105).

الأصابع، فاضطربت أحوال الديار المصرية،[1] واستمر النيل على ذلك ثلاث سنين متواليات، ولم يزد غير عشرة أذرع ثم يهبط، فوقع القحط بالديار المصرية،[2] واشتد الغلاء، وعُدمَت الأقوات في سائر مصر، إلى أن بيع إردب[3] القمح بخمسة دنانير.[4]

قام الملك العادل بالإنفاق من أمواله على الناس، ولكن التحدي الاقتصادي والاجتماعي كان كبيرًا، فأنفق على تكفين الموتى من ماله لمدة شهر، فكان عدد الموتى كبير في هذه السنة، نحو (٢٢٠) ألف ميت من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ،[5] وقام بإخراج الكثير من الغلال وأمر بتوزيعها للتخفيف من حدة هذه الأزمة على أهل البلاد، وامتلأت طرقات المغرب والمشرق والحجاز والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع الإسكندرية في يوم على (٧٠٠) جنازة.[6] وذكر أبو شامة ذلك بقوله: "اشتد الغلاء، وامتد البلاء، وتحققت المجاعة، وتفرقت الجماعة، وهلك القوي فكيف الضعيف، ونحف السمين فكيف العجيف، وخرج الناس حذر الموت من الديار وتفرق فريق مصر في الأمصار"، وذكر أيضًا أنه أقر كثير من الناس بالعبودية لمَنْ يؤويه ويطعمه.[7]

ونتيجة لهذه المجاعة الشديدة كثر الموت في مصر، حتى غطت جثث الموتى الشوارع والطرقات، ولم تجد مَنْ يواريها التراب، فتركت في العراء،[8] حتى أن الناظر إلى مياه وشطوطه كان يرى جثث الموتى وأشلاءهم متناثرة في كل مكان،[9] وهو ما أدى إلى تلوث الماء والهواء بالعفونة، فانتشر على إثر ذلك الوباء والمرض في مصر وكثرت الوفيات،[10] حتى إن بعض القرى قد هلك أهلها جميعهم وأصبحت خربة، لا أثر فيها لإنسان أو حيوان أو طير،[11] كما تأثرت به بعض المدن أكثر من غيرها، فكثرت فيها الوفيات؛ مثل الإسكندرية، ودمياط، والفيوم.[12]

وكان من الطبيعي أن ينتشر على إثر هذه المجاعة الوباء والطاعون، ويشير ابن إياس إلى ذلك فيقول: "ثم جاء عقب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل مصر حوالي الثلثين"،[13] وإن كان الذهبي قد أشار إلى أن مَنْ أحصاه ديوان أو قلم الحشرية المختص بتسجيل أسماء مَنْ هلك بالوباء والطاعون[14] في مدة سنتين تقريبًا، مائة وواحد وعشرين آلف متوفٍ، وهذا العدد هو الذي أحصاه الديوان فقط، فلا شك أن هناك أعداد أخرى كثيرة جدًا، لم يتمكن الديوان من إحصائها، وذلك لبدائية وسائل الإحصاء التي كانت متبعة في تلك الفترة، بالإضافة إلى قسوة المجاعة والوباء والطاعون، الأمر الذي كان يجعل رجال الديوان الذين يقومون بالإحصاء على أرض الواقع في غاية الحذر حتى لا يصابوا بالعدوى، ولعل ذلك هو ما دفع ابن إياس إلى القول بأن ثلثي أهل مصر قد مات من جراء هذا الوباء.[15]

---

(1) ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت. 930هـ/ 1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور.- القاهرة: مكتبة مدبولي، 2005. (ج1/ ص93).

(2) المقريزي، إغاثة الأمة، ص29 – 31.

(3) إردب: مكيال مصري للحنطة (القمح) يساوي (٦٩,٦ كجم)، و(٥٦ كجم) للشعير. راجع: هنتس فالنتر، المكاييل والاوزان الإسلامية/ ترجمة: كامل العسلي.- عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧١. ص59.

(4) أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت. ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بـ (الذيل على الروضتين)/ وضع حوشيه: إبراهيم شمس الدين.-بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢. ص٣١. ابن واصل، مفرج الكروب، (ج٣/ ص ١٢٧).

(5) محمود محمد الحويري، العادل الأيوبي: صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية.- القاهرة: دار حراء، 1980. ص111.

(6) ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت. ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.- القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1968. (ج٦/ ص١٧٣). ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء (ت. ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية.- بيروت: مكتبة المعارف، 1982. (ج١٣/ ص٢).
Natural Disasters: Famines--Hurricanes, Typhoons, and Cyclones/ Edit by: Marlene Bradford, Robert S. Carmichael, Tracy Irons-Georges.- Salem Press, Incorporated, 2001. P.371.

(7) أبو شامة، الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)/ وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين.- بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ ص٣٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج٦/ ص١٧٤).

(8) السيوطي، تاريخ الخلفاء/ تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.- بيروت، 1988. ص520.

(9) بول غليونجي، طب وسحر.- القاهرة : وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1960. ص136.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج3/ ص127).

(11) بول غليونجي، طب وسحر، ص136.

(12) بول غليونجي، طب وسحر، ص145.

(13) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/ ص94).

(14) الذهبي، دول الإسلام، (ج2/ ص106/ حاشية 1).

(15) هيفه صالح صلاح الصاعدي، الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام/ أطروحة ماجستير إشراف أحمد البدر شيني.- المدينة المنورة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، 2012. ص54 – 55.

وعلى الرغم من الجهود التي بُذلت من قِبل السلطان العادل،[1] وسائر الأمراء،[2] والأغنياء، وميسوري الحال في مساعدة المتضررين من هذه المجاعة،[3] إلا أن هذه الجهود كانت كالقطرة في بحر، وذلك لضخامة الكارثة التي فاقت كل الكوارث والأزمات التي تعرضت لها مصر من قبل، قِيل عنها أنها كانت أكبر وأخطر من الشدة العظمى التي تعرضت لها مصر في خلافة المستنصر الفاطمي والتي استمرت لمدة سبع سنوات (457 – 464هـ/ 1064 – 1071م)،[4] وقد زعم الكثير من أرباب الأموال أن الغلاء والمجاعة التي حدثت في عهد العادل كسني يوسف "عليه السلام".[5]

وقد "استمر الأمر على ذلك مدة ثم سكن الحال، وتراجع الأمر قليلاً، وظهرت الغلال، وانحط سعر القمح، حتى صار رميًا لا يجد مَنْ يشتريه، وتراجع سعر كل شيء، وانصلح الوقت، وطاب ورجع الماء إلى مجاريه".[6]

أولاً: الكانيبالية بدافع الجوع

لقد كانت المجاعة التي مرت بها مصر في هذه السنوات بالغة الشدة، بحيث اضطر أهلها من شدة الجوع إلى أكل القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال، فما بقي في مصر من دابة، "وجرت أمور تتجاوز الوصف".[7]

1/1- أكل لحوم الموتى

تقول النصوص بعد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش والطيور،[8] وكل ما يتحرك، أو ما كان يتحرك، بدأت الأيادي بالامتداد نحو الأيادي الأخرى التي توقفت عن الحركة، تتفحصها، تتفرس فيها، تقلبها، تتركها ثم تعود إليها، كم يستمر الوضع قبل اتخاذ القرار بالأكل؟[9]

أكلوا الآدميين الموتى،[10] نُهِبت القبور نفسها من أجل الطعام، "واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجِيَف والكلاب والبعْر[11] والأرواث[12]"،[13] "ومما شاع أيضًا نبش القبور، وأكل الموتى، وبيع لحمهم"،[14] وخلت مدينة القاهرة ومصر من أكثر أهلها، وصار مَنْ يموت لا يجد مَنْ يواريه، فيصير عدة أشهر حتى يؤكل أو يُبلى.[15]

2/1- أكل لحوم الأقارب والجيران والأصدقاء

تتفق الشهادات المدققة للأحداث غالبًا حول أن قرار الافتراس العام في حالة الجوع كان يتم عادة بعد نفاد كل غذاء.[16] "وَعُدِمَ القوت... فكان الأب يأكل ابنه مشويًا ومطبوخًا، والمرأة تأكل ولدها، فعوقب جماعة بسبب ذلك، ثم فشا الأمر وأعيا الحكام"،[17] فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف لطفل صغير أو فخذه أو شيء من لحم الطفل الصغير.[18]

---

(1) محمد العاملي، "المجاعة والوباء في مصر من خلال مقالات الطبيب عبد اللطيف البغدادي"، ضمن بحوث مؤتمر المجاعات والأوبئة (الجمعية المغربية للبحث التاريخي).- أكتوبر 2002. ص158.

(2) كان الأمير لؤلؤ أحد الحُجاب بالديار المصرية يتصدق في هذا الغلاء في كل يوم باثني عشر ألف رغيف على اثنى عشر ألف فقير. ابن كثير، البداية والنهاية، (ج13/ ص23 - 24).

(3) المقريزي، إغاثة الأمة، ص31.

(4) راجع: محمد حسين محاسنة، "الشدة العظمى وأثرها في مصر في خلافة المستنصر بالله الفاطمي".- مجلة مؤتة للبحوث والدراسات (الأردن).- مج12، ع1، 1997. ص235 – 259.

(5) المقريزي، إغاثة الأمة، ص31.

(6) ابن أيبك: أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (ت. بعد سنة 736هـ/1335م)، كنز الدرر وجامع الغرر/ تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية.- القاهرة: المعهد الألماني للآثار، (1961 - 1992). (ج7/ ص149). ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (مج4/ ج2/ ص209).

(7) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة/ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.- القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1968. (ج2/ ص292).

(8) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/ ص94).

(9) عبد العزيز غوردو، عرض كتاب "افتراس اللحوم الآدمية: زيارة إلى التاريخ المقارن" (الجزء الثاني).- دورية كان التاريخية (القاهرة).- السنة (2) ع5 سبتمبر 2009. ص71.

(10) الذهبي: محمد بن أحمد (ت. 748هـ)، العبر في خبر مَنْ غبر/ تحقيق: صلاح الدين المنجد، وفؤاد سيد.- الكويت: سلسة التراث العربي، 1960. (ج4/ ص290).

(11) البعْر: ما يخرج من بطون الغَنَم والإبل وما شابهها.

(12) الرَّوْثُ: ما يُخرجه ذو الحافر من الغائط (رَوْثُ حصان)، الجمع: أرْوَاثٌ.

(13) Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.119.

(14) Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.129.

(15) المقريزي: تقي الدين أبي العباس أحمد (ت. 845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك/ تحقيق: محمد عبد القادر عطا.- بيروت: دار الكتب العلمية، 1997. (ج1/ ص269).

(16) عبد العزيز غوردو، افتراس اللحوم، ص70.

(17) المقريزي، إغاثة الأمة، ص29.

(18) المقريزي، السلوك، (ج1/ ص269).

فصار الناس إذا قوى أحدهم على صاحبه يذبحه ويأكله، وصار الرجل يذبح ابن جاره ويأكله، ولا يُنكر ذلك عليه، ويذبح ولده بيده ويأكله من شدة الجوع،[1] ومن أشنع ما قيل في ذلك، أن الرجل كان يقوم يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه ويأكلونه، ولما اطلع السلطان على ذلك أمسك جماعة فعلوه، فأمر بحرقهم، فأحرقوهم بمشاهدة جميع الناس.[2] وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفّه، فيذبحه ويأكله.[3]

يقول البغدادي: "وحكى لي مَنْ أثق به أنه اجتاز على امرأةٍ بخِزْبَةً[4] وبين يديها ميت قد أنتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه، فأنكر عليها، فزعمت أنه زوجها، وكثير ما يدّعي الآكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك، ورُئي مع عجوز صغير تأكله، فاعتذرت بأن قالت إنّما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي متّي، ولأن آكله خير من أن يأكله غيري، وأشباه هذا كثير جدًا حتى أنك لا تجد أحدًا في ديار مصر إلّا وقد رأى شيئًا من ذلك، حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن[5]"،[6] يُبدو أن الاعتذار بالقرابة لأكل اللحم البشري كان يعفي عن بشاعة الموقف والعقوبة.

3/1- أكل لحوم الأطفال

ولما اشتد الجوع بالفقراء "أكلوا صغار بني آدم، فكثيرًا ما يُعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل".[7] ووجدت لحوم الأطفال في الأسواق والطرقات مع الرجال والنساء مختفية في ملابسهم.[8] لقد أورد البغدادي العديد من حالات أكل الأطفال الصغار التي وقف عليها بنفسه، أو سمعها من الثِقات، فيقول: "ورأيت صغيرًا مشويًا في قفة،[9] وقد أُحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة يزعُم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما"،[10] "ولقد رأيت امرأةً مشججة[11] يسحبها الرّعاعُ في السوق وقد ظفر معها بصغير مشويّ تأكل منه".[12]

"ورأيتُ قبل ذلك بيومين صبيًا نحو الرُّهَاقُ مشويًا، وقد أخذ به شابان أقرّا بقتله وشيّه وأكلِ بعضه". "وفي بعض الليالي بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيمٌ تلاعبه لبعض المياسير [أغنياء القوم] فبينما هو إلى جانبها، اهتبلت غفلتها عنه صعلوكةٌ فبقرت بطنه، وجعلت تأكل منه نيّا".[13]

"وأُكِلَ من الأطفال خلق كثير"،[14] ويبدو أن لحوم الأطفال كانت من الأنواع المفضلة عند الناس، فأقبلوا على أكلها عوضًا عن نفاد الدجاج، يقول المقريزي: "واستمر أكل لحوم الأطفال، وعُدم الدجاج جملة"،[15] ويفهم من الشهادات المعاصرة لآكلي لحوم البشر أن لحوم الأطفال تتسم بالجودة واللذة، أما لحوم كبار السن فتكون دسمة.[16]

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/ ص94).

(2) ابن أيبك: أب بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب/ تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور.- القاهرة: [د.ن] 1972. (ج7/ ص149). أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص19.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج2/ ص292).

(4) خِزْبَةً: مَكَاناً مُوحَشاً لاَ عُمْرَانَ فِيهِ. أخطأ البعض في قراءة الكلمة فظهرت في تحقيقه للنص (امرأة تجرية)، راجع: سلامة موسى، عبد اللطيف البغدادي في مصر: وصف مصر حوالي سنة 1200 للميلاد.- القاهرة: مطبعة المجلة الجديدة [د.ن]. ص65. والطبعة الجديدة من الكتاب والتي أعدت الطبعة السابقة كررت الخطأ نفسه، راجع: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مقدمة كتاب رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.ص19، ص137.

(5) معنى خَدَرَ في المعجم الوسيطُ (خَدْرًا): اسْتَتَرَ. يقال: خَدَرَتِ المرأةُ. وخَدَرَ الأسد: لزِمَ عرينَه وأقام به. وفي المكان: أقام. وفي لسان العرب (الخِدْرُ): سِتْرٌ يُمَدُّ للجارية في ناحية البيت.

(6) Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.128 - 129.

(7) Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.120.

(8) المقريزي، إغاثة الأمة، ص104.

(9) وعاءٌ من خُوصٍ أو نحوه لحمل البضائع وغيْرها.

(10)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.120.

(11) مَشْجُوجٌ: مجروح.

(12)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.121.

(13)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.121.

(14) المقريزي، السلوك، (ج1/ ص269).

(15) المقريزي، إغاثة الأمة، ص105.

(16) وسيم الشريف، "مجاعة الموصل سنة 1917 ومن قصص مآسيها".- ذاكرة عراقية (ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون). العدد (3833) السنة (14)

4/1- اصطياد الغرباء

كان البلاء شديدًا حتى نزح الناس في حشود، وهُجِرت أحياء وقرى بأكملها،[1] أما مَنْ بقي فقد عَرَّضَ نفسه لممارسات وحشية، فقد كانت الشوارع شِراكًا مميتة.[2] يقول البغدادي: "ووجد في رمضان وبمصر رجل وقد جُرِّدت عظامه عن اللحم، فأُكل وبقي قفصًا كما يفعل الطباخون بالغنم".[3]

(4/1) 1- اقتناص الأطفال

كَمِنَ الرجال للنساء في الشوارع من أجل اقتناص أبنائهم، ويحكي البغدادي أقاصيص مزعجة في هذا السياق، وكلها تدور حول فقراء جوعى من رجال ونساء وقد انتشروا في شوارع القاهرة يخطفون الصغار ويأكلونهم، يقول البغدادي: "وحكى لي عدة نساء أنه يُتوثَّب عليهنَّ لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن"، "ورأيت مع امرأةٍ فطيمًا لحيمًا فاستحسنتُه، وأوصيتها بحفظه، فحكت لي أنها بينما تمشي على الخليج أنقضَّ عليها رجلٌ جافٍ ينازعها ولدها، فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارسٌ وطرده عنها، وزعمت أنه كان يهمُّ بكلِّ عضوٍ يظهر منه أن يأكله، وأنَّ الولد بقيَ مدةً مريضًا لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس".[4]

وذكر البغدادي أن الرجال والنساء يتصيدون أطفال الشوارع المنبثين مَنْ لم يبق له كفيل ولا حارس فيتغذون بهم، "وتجدُ أطفال الفقراء وصبيانهم ممَّنْ لم يبقَ له كفيل ولا حارسٌ منبثّين في جميع أقطار البلاد وأزقَّةِ الدروب كالجراد المنتشر، ورجالُ الفقراء ونساؤهم يتصيَّدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وإنّما يُعثر عليهم في الندرة وإذا لم يحسنوا التحفظ".[5]

وقد لاحظ البغدادي أن أكثر المتهمين بأكل لحوم أطفال الشوارع كن من النساء، وأرجع ذلك إلى أن النساء "أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار"،[6] ولقد أُحرق في مصر خاصةً في أيام يسيرة ثلاثون امرأةً كلّ منهنّ تُقرُّ أنها أكلت جماعة، يقول البغدادي: "فرأيت امرأةً قد أُحضرت إلى الوالي وفي عنقها طفل شوي، فضربت أكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تُحيرُ جوابا، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت".[7] وقد أصاب الجوع الرجال والنساء بالسعار والجنون، فإذا عُوقب أحدهم بالحرق ما لبث أن يأكله الآخرون "وإذا أحرق آكل أصبح وقد صار مأكولاً لأنه يعود شواء ويُستغنى عن طبخه".[8]

(4/1) 2- خطف الكبار

لقد أكل الإنسان لحم أخيه الإنسان، وتشكلت العصابات المختلفة لخطف الآدميين وبيع لحومهم، "وظهر من هؤلاء الخُبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبايل [الحبائل][9]"،[10] "وكان جماعاتٌ من الفقراء قد آووا إلى الجيزة وتستّروا ببيوت طين، يتصيّدون فيها الناس، وفُطن لهم وطُلب قتلهم فهربوا، ووَجد في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير، وخبرني الثقة الذي وجِدَ في بيوتهم أربع ماية [مائة] جمجمة".[11] "وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطَّفونَ الناس، ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بَدينٌ ممّن يتبيّعنا الكتب فأفلت بجريعة الذقن،[12] وكذلك بعض قُوَّام[13] جامع مصر وقع في حبالة قوم آخرين بالقرافة، فتداركه الناس فخلص من الوَهَقُ[14] وله حُصاصُ،[1] وأما من خرج من أهله

الاثنين كانون الثاني 2017. ص15.

(1) نيل دي. ماكنزي، القاهرة الأيوبية: دراسة طبوغرافية/ ترجمة: عثمان مصطفى عثمان.- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2007. ص59 – 60.

(2) ستانلي لين بول، تاريخ مصر في العصور الوسطى/ ترجمة وتعليق: أحمد سالم.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015. ص417.

(3)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.120.

(4)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.122.

(5)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.122.

(6) أحمد علي السري، "صورة المرأة في كتب الرحلة في عصر الحضارة الإسلامية".- دورية كان التاريخية (القاهرة).- العدد الواحد والثلاثون؛ مارس 2016. ص20.

(7)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.123.

(8)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.123.

(9) حَبائِلُ: جمع (أُحْبولة). الأُحْبُول: المصيدة، أداة مصنوعة من حبال يُؤخذ بها الصَّيد.

(10)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.124.

(11)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.125 - 126.

(12) جريعة الذقن: أي وقرب الموت منه فكاد يهلك فأفلت وتخلص.

(13) القوّامُ: المُتولّي للأمور.

(14) الوَهَقُ: الحبل في أحد طرفيه أُنشوطةٌ يُطْرح في عنق الدَّابة والإنسان حتى يؤخَذَ.

فلم يرجع إليهم مخلوقٌ كثير!".[2]

(4/1) 3- حيل الإيقاع بالناس

ثم صار الناس يحتال بعضهم على بعض،[3] "ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل[4]"،[5] ويؤخذ مَنْ قدر عليه فيؤكل، وإذا غلب القوي ضعيفًا ذبحه وأكله، وفُقِدَ كثير من الأطباء؛ لكثرة مَنْ كان يستدعيهم إلى المرضى.[6]

يقول البغدادي: "وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطبّاء ممّن ينتابني، أما أحدهم فإنّ أباهُ خرج فلم يرجع، وأما الآخر فإنّ امرأةً أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضِها، فلما توغّلت به مضايقَ الطرق استرابَ وامتنعَ عنها، وشتّع[7] عليها، فتركت درهميها، وأما الثالث فإنّ رجلاً استصحبه إلى مريضه في الشارع بزعمه، وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يُغتنم الثوابُ ويتضاعفُ الأجرُ ولمثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثر حتّى ارتاب منه الطبيب، ومع ذلك فحسن الظن بقلبه وقوة الطمع تجذبه، حتى أدخله دارًا خربة فزاد استشعاره وتوقّف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح، فخرج إليه رفيقه يقول له: هل مع إبطائك حصل صيد ينفع، فخرج الطبيب لما سمع ذلك، وألقى نفسه إلى إصطبل من طاقة صادفها السعادة، فقام إليه صاحب الإصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفًا منه أيضًا، فقال: قد علمت حالك، فإنّ أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل".[8]

ويذكر البغدادي في حوادث سنة 598هـ: "ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممّن ينتابني سوى مَنْ سبق ذكرهم، أن استدعاه رجل زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة، فلمّا حصل في المنزل أغلق الباب ووثب عليه فجعل في عنقه وهقا[9] ومَرَتَ[10] المريض خصيتيه، غيرَ أنه لم تكن له معرفة بالقتل فطالت المناوشة، وعلا ضجيجه، فتسامع الناس ودخلوا، فخلّصوا الشيخ مُرْتَثًا،[11] وبه رمقٌ يسير، وقد وجيت خصياه، وكسرت ثنيّتاه،[12] وحُمل إلى منزله مغشيًا عليه، وأحضروا الفاعل إلى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت، فقال: الجوع فضربه ونفاه".[13]

ثانيًا: اعتياد أكل لحوم البشر

إن التجربة (الصدمة الأولى) قد تجعل مرتكب الفعل "الأكل" يحس بنوع من المرارة أو وخز الضمير، أو تذهب به حد التقيؤ والغثيان، لكن المجاعة تمتد على زمن معين، وصفة التماد هذه تجعل مرتكب الفعل "الأكل" يجوع من جديد، ثانيًا، وثالثًا، بطول مدة المجاعة، فهَوَّلَ التجربة (الصدمة الأولى) قد مضى لحاله، وليس هناك إلا الاستسلام للجوع (الموت)، أو الصراع من أجل البقاء (الحياة) وأكل الآدميين.[14]

لذلك يقول البغدادي: "وحينما نَشَّمَ[15] الفقراء في أكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعًا لأمره وتعجّبًا من ندوره، ثم اشتد قرمهم إليه وضراوتهم عليه بحيث اتّخذوه معيشةً ومطيّة ومدَّخرا وتفنّنوا فيه، وفشا عنهم، ووُجِد بكلّ مكان من ديار

---

(1) الحُصاصُ: شِدّةُ العَدْوِ في سرعة.

(2)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.128.

(3) المقريزي، السلوك، (ج1/ ص269).

(4) (خاتَلَ). خاتل الصيَّادُ فريستَه: خدعها وغافلها، ومشى قليلاً وراءها لئلاّ تحسّ به.

(5)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.124.

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/ ص269).

(7) شنع فلانًا: عابَه وفضحه (شنع جارَه). شَنَّعَ على فلانٍ: فَضَحَهُ وشَوَّه سُمْعتَهُ.

(8)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.124 - 125.

المقريزي، السلوك، (ج1/ ص269).

(9) الوَهَقُ: حبل في أحد طرفيه عقدة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ.

(10) مَرَتَ: عَضَّ.

(11) مُرْتَثًا: حمل فلان من المعركة (مرتثا) أي جريحًا وبه رمق.

(12) الثنية: جمعاها ثنايا، وهي أسنان مقدم الفم.

(13)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.145.

(14) عبد العزيز غوردو، افتراس اللحوم، ص70.

(15) نَشَّمَ فِي الأَمْرِ: إِبْتَدَأَ فِيهِ وَأَخَذَ.

مصر، فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له".[1]

وقاعدة الأَلِفَ والاعتياد مع الحاجة إلى مدافعة الجوع صونًا للحياة هي المعتمدة في شروح البغدادي لفهم مسالك الناس للبقاء أحياء في عام القحط الشديد هذا،[2] فقد رأى امرأة يسحبها الرّعاعُ في السوق، وقد ظفر معها بصغير مشويٍّ تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها، ومقبلون على شئونهم، وليس فيهم مَنْ يعجب لذلك أو ينكره، "فعاد تعجبي منهم أشد وما ذلك إلّا لكثرة تكرُّرِه على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحقُّ أن يُتعجب منه".[3]

أما أكل لحوم الآدميين فشاع وتواتر،[4] وانتشرت هذه البلوى في مصر من أقصاها إلى أدناها،[5] ليس فيها بلد إلّا وقد أُكل فيه الناس لحم البشر "أكلاً ذريعًا" في أسوان، وقوص، والفيوم، والمحلة، والإسكندرية، ودمياط، وسائر النواحي، وقد تفشت هذه الظاهرة بصفة خاصةً في الإسكندرية، يقول البغدادي: "وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الإسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك"،[6] فقد "آلف الناس الغلا، واستمروا على البلا، حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي".[7]

1/2- طهي الأعضاء البشرية

واخترع الناس طرقًا عديدة لطهو لحوم البشر وسلقها وشيها، وأصبحت لحوم الأطفال من أزكي أنواع الطعام،[8] حيث كانت الأطفال المطهوة، وأطباق رؤوس الأطفال أصنافًا غذائية عادية.[9] يقول البغدادي: "وأما مَنْ يتحين[10] ذلك بدار الوالي فإنه يجد منه أصنافًا تحضر مع آناء الليل والنهار، وقد يوجد في قَدْرٍ[11] واحدة اثنان وثلاثة وأكثر، ووجد بعض الأيام قِدْر فيها عشر أيد كما تُطبخ أكارعُ الغنم، ووجد مرة أخرى قِدْر كبيرة وفيها رأسٌ كبيرٌ وبعض الأطراف مطبوخًا بقمحٍ وأصنافٍ من هذا الجنس تفوت الاحصا [الإحصاء]"،[12] ويذكر البغدادي أيضًا أن صديق له قادم من الإسكندرية أخبره أنه رأى بعينه "أرؤس خمسة صغارٍ مطبوخة في قِدْر واحدة بالتوابل الجيدة".[13]

الجدير بالذكر؛ أن إشارة البغدادي إلى القمح، يدل دلالة قاطعة على أن الأطعمة كانت موجودة، ليست صحيح بالوفرة المطلوبة، وليست في متناول الجميع، إلا أنها كانت في متناول البعض لا سميا أغنياء القوم وميسوري الحال.

2/2- تخزين اللحوم الآدمية

ترد إشارات في النصوص عن تخزين اللحوم الآدمية، "فصادف عنده خزانة مشحونة برِمَم[14] الآدمي وباللّحم الطري"،[15] "فقامت الْقَابِلَةُ[16] إلى الخزانة فوجدتها أنابيرُ[17] لحمٍ"،[18] ويتضح من ذلك أن الناس في المنازل عملوا على حفظ اللحوم الآدمية، وتعبئتها، وتخزينها

---

(1)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.120 - 121.

(2) أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص20.

(3)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.121.

(4) الذهبي، العبر، (ج4/ ص295 – 296).

Margaret Leibenstein, “Beyond old Cookbooks: Four travelers’ Accounts” In Book: Food on the Move: Proceedings of the Oxford Symposium on Food and Cookery, 1996/ Edited by: Harlan Walker.- England: Prospects books, 1997. P.224.

(5) ستانلي لين بول، ص417.

Cormac Ó Gráda, Famine: A Short History. - New Jersey: Princeton University Press, 2009. P.65.

(6)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.129.

(7)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.140.

(8) علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم، ص149.

(9) ستانلي لين بول، ص417.

(10) تحيَّن الشَّيء: انتظر الوقتَ المناسبَ وترقَّبه.

(11) القِدْرُ: إناءٌ يُطْبَخُ فيه الطّعام، والجمع (قُدُورٌ).

(12)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.128.

(13)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.129 - 130.

(14) الرِّمَّةُ: عظام بالية، وتُطلق توسُّعًا على ما تعفَّن من جسد الميّت. الجمع: (رِمَم).

(15)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.124.

(16) الْقَابِلَةُ: السَّيِّدَةُ الَّتِي تُسَاعِدُ الْحَامِلَ عِنْدَ الْوِلاَدَةِ وَتَتَلَقَّى وَلِيدَهَا عِنْدَ الْوَضْعِ.

(17) أنابيرُ: جمع أنبار. الأَنْبَارُ: بيت التاجر الذي يجمع فيه المتاع والغلال.

(18)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.126.

حتى تكون في المتناول عند الحاجة لإعداد الطعام. كما وجد هذا النوع من اللحوم في الأسواق، يقول البغدادي: "ووجد بأطفيح[1] عند عطار، عدة خوابي[2] مملوءة بلحم الآدميّ، وعليه الماء والملح، فسألوه عن علة اتخاذه، والاستكثار منه، فقال: خِفت إذا دام الجدب[3] أن يهزل[4] الناس".[5]

ثالثًا: الكانيبالية بدافع اللذة

تذكر بعض الأدبيات الحديثة إن أكل لحوم البشر ليس إنسانًا متوحشًا مجردًا من طبيعته الإنسانية، بل إنه إنسان عادي، ولكنه يعدُ أخاه الإنسان في جملة الحيوانات مأكولة اللحم، بل يفضل أحيانًا لحم الإنسان على غيره من الحيوان،[6] فلم يلبث المصريون لامتداد المجاعة لديهم وطول ممارستهم لأكل لحوم البشر أن أصبحت هذه الفظائع أمورًا عادية، بل أخذ كثير من الناس يجدون لذة في هذا النوع من اللحوم.[7]

يقول البغدادي: "ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى فني أكثرهم، ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير، منهم مَنْ يفعله حاجة ومنهم مَنْ يفعله استطابة، وحكى لنا رجل أنه كان له صديق أدقع[8] في هذه النازلة، فدعاه صديقه هذا إلى منزله ليأكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل، فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة[9] الفقر وبين أيديهم طبيخٌ كبير اللحم وليس معه خبز؛ فرابه ذلك، وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمي وباللّحم الطري، فارتاع وخرج فارًا".[10]

ولم يعد أكل لحوم البشر مقصور على الفقراء والمعوزين من الناس، بل إن كثيرًا من أغنياء القوم أنفسهم الذين كان من الميسور لديهم الحصول على أطعمة أخرى كانوا يؤثرون اللحم الإنساني. فقد سجل البغدادي ما سمع من الوالي وأن امرأة "أتته سافرة مذعورة"،[11] وهي إشارة إلى الفظاعة وهول الأمر، وإلا لتنقبت وخرجت،[12] فذكرت للوالي أن قومًا استدعوها وقدموا لها صحنًا فيه سِكْبَاجُ،[13] فألفته مباينًا للحم المعهود فتقززت منه، ثم استفردت ببنت صغيرة في البيت فسألتها عن اللحم، فقالت "إنها فلانة السمينة، دخلت لتزورنا فذبحها أبي وها هي معلقة إربًا"، فقامت المرأة إلى الخزانة فوجدتها مليئة باللحم، فأمر الوالي بمهاجمة المنزل وهرب صاحبه، "ثم صانع عن نفسه في خفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه"،[14] وتلك إشارة إلى أن صاحب المنزل كان يملك المال الذي يمكنه من الحصول على أطعمة أخرى، لكنه فضل أكل لحم هذه السيدة السمينة.

ويدخل الجار إلى جاره، فيجد القدر على النار، فينتظرها حتى تنهيأ، فإذا هي لحم طفل، وأكثر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت.[15] بل لقد كان أغنياء القوم يستأجرون المجرمين ليصيدوا لهم الأطفال لتزدان موائدهم بلحومهم، فذكر البغدادي أن امرأة من نساء الأجناد[16] ذات مال ويسار كانت حاملاً، وزوجها غائب عنها، فاشتهت من طبيخ الجيران وقد شمته، وكان صعاليك يجاورونها، فلما ذاقت من طبخهم ألفته لذيذًا فطلبت المزيد، فباحوا لها بالسر وأنه لحم بشري، فاتفقت معهم على أن يتصيدوا لها الصغار، وتجزل لهم العطاء، فلما تكرر ذلك منها

---

(1) أطفيح: من قرى مركز الصف في محافظة الجيزة (مصر).

(2) خَابِيَةٌ. جمع: الْخَوَابِي. خَابِيَةُ الْمَاءِ: جَرَّةٌ ضَخْمَةٌ مِنَ الطِّينِ لِحِفْظِ الْمَاءِ وَتَصْلُحُ لأَغْرَاضٍ أُخْرَى.

(3) الجَدْبُ: نَقِيضُ الخِصْبِ. أَجْدَبَتِ البِلادُ: أَي قَحِطَتْ وغَلَتِ الأَسْعارُ.

(4) هزَل القومُ: قلَّتْ أموالُهم.

(5)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.125.

(6) Felicien Challaye, Le Congo francais, la question internationale du Congo. Paris. F. Alcan 1909. (311 Pages)

(7) علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم، ص149.

(8) أدقع الشَّخصُ: افتَقَر وذَلَّ.

(9) يرتدون ملابس بَالِية مُمَزَّقة.

(10)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.124.

(11)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.126.

(12) أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص20.

(13)سِكْبَاجُ: لحم مطبوخ ومتبل.

(14)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.126.

(15) المقريزي، إغاثة الأمة، ص104.

(16) أخطأ البعض في قراءة الكلمة فظهرت في تحقيقه للنص (نساء الأجنلا)، راجع: سلامة موسى، عبد اللطيف البغدادي في مصر، ص64. وفي الطبعة الجديدة لم تظهر داخل النص، راجع: البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر/ تحقيق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998. ص136. وظهرت في مقدمة المحقق، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ص19.

صارت عنيفة وشرسة وغلبت عليها الطباع السبعية، فأخبر جيرانها السلطات عنها، فهجموا على منزلها ووجدوا عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك، "فحُبست مقيدة، وأرجئ قتلها احترامًا لزوجها، وإبقاءً على الولد في جوفها".[1]

خاتمة:

لم ينسى البغدادي أن يؤكد أن ما قصه هو مما شاهد وسمع، وأنه لو أخذ في قص المزيد عن أكل لحوم البشر لاتهم بالهذر (الكلام الباطل)، وأن كل ما حكاه هي مشاهداته التلقائية التي لم يتقصدها ولم يتتبعها، وإنما رأى وسمع بالمصادفة، وأنه كثيرًا ما كان يفر من المشاهدة لبشاعة المناظر،[2] كما أنه يرى أن مقدار ما قَدمَ من مشاهدات عن أكل لحوم البشر كافٍ وإن كان مقصرًا لكثرة ما شاهد وسمع،[3] حيث استمرت المجاعة حتى منتصف سنة (598هـ/1202م)، "فتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره"،[4] وهو حال مرتبط بماء النيل وحصول الزراعات الوافرة.[5]

والحقيقة أن النماذج التي سبق ذكرها تعاطت مع ظاهرة الكانيبالية في سياق الإكراه الغريزي من أجل البقاء، فزمن المجاعات الكبرى يوقع الناس في المواقف الحدية، وخلال هذه اللحظات يتخلص الإنسان من قيوده اليومية واهتماماته المثالية، ويصبح في مواجهة الوجود بكل عنفه وعمقه، فأفرزت المجاعة بوصفها كارثة طبيعية نمطًا سلوكيًا مختلف وغريب، تمثل في الارتداد نحو الطور "الوحشي" البدائي، حيث يصبح الإنسان مفترسًا وآكلاً، والغذاء هنا لا يعني مجرد الأكل العادي، لأن الإنسان وقتها لا يأكل شيئًا عاديًا؛ فالآكل والمأكول شيء واحد.[6]

نتائج الدراسة:

هدفت الدراسة إلى استكشاف ظاهرة الكانيبالية في مصر خلال العصور الوسطى، باستخدام المنهج الوصفي الاستقرائي على تفاصيل الظاهرة أثناء فترة المجاعة (1200 – 1202م)، وقد أسفرت الدراسة عن عدد من النتائج، تتمثل فيما يلي:

1- إن مصر تُعَدّ في المقام الأول إقليمًا زراعيًا، ولما كان اقتصاد المجتمعات الزراعية يرتبط قوةً وضعفًا بحجم ما يتوافر لديها من مصادر الري المختلفة، فقد مثَّل فيضان نهر النيل ملمحًا أساسيًا في تبيان استقرار أو اضطراب الحياة الاجتماعية القائمة على أرض مصر؛ ولذلك يبرز الفيضان (بالنقص أو الزيادة) في مقدمة الأسباب المباشرة والطبيعية في وقوع نقص الإنتاج الغذائي،[7] وبالتالي أزمة/مجاعة يعقبها أضرار اقتصادية وصحية بسببه.

2- إن انحراف غريزة الغذاء نحو التهام الأموات والأحياء، أكل الآدمي ميتًا في مرحلة أولى، وتصيده حيًا لما استفحل الجوع بالفقراء في مرحلة ثانية،[8] ناتج عن تأثير الجوع الشامل الذي يخمد كل اهتمام ورغبة، ويجعل الإنسان يركز كل تفكيره في الحصول على ما يأكله مهما كانت الوسيلة ومهما كانت الأخطار،[9] أضف إلى ذلك الخوف من الموت جوعًا،[10] فالأزمة جعلت الفقراء يعجزون عن التفكير بإنسانية حين تعلق الأمر بأدنى خطر يهدد بقاءهم على قيد الحياة، وذلك بشهادات المعاصرين لمجاعات حدثت في القرن العشرين، حيث كان الفرد يأكل أكثر من أكله في الأيام الاعتيادية، وهم يعزون ذلك إلى ما أحدثته المجاعة بهم من تأثير نفسي.[11]

3- كانت الكانيبالية لغرابتها في مبدأ الأمر موضع دهشة الناس وحديثهم الذي لا ينقطع في غدوهم ورواحهم وساعات عملهم وسمرهم، ولكن لم يلبث المصريون لامتداد المجاعة لديهم وطول ممارستهم لأكل لحوم البشر، أن أصبحت هذه الفظائع أمورًا عادية، وحينئذ انقطع حديث الناس عن ذلك، ولم تثر هذه الأعمال لديهم نفورًا ولا اشمئزازًا.

---

(1)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.126 - 127.

(2)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.127.

(3)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.130.

(4)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.139.

(5) أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص21.

(6) عبد العزيز غوردو، افتراس اللحوم، ص69 – 70.

(7) مصطفى وجيه مصطفى، الغذاء في مصر عصر سلاطين المماليك: دراسة في التاريخ الاجتماعي.- الجيزة: دار عين للدراسات والبحوث، 2016. ص212.

(8) محمد العاملي، المجاعة والوباء، ص164.

(9) عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس.- بيروت: دار الطليعة، 2008. ص184.

(10) فهد عامر الأحمدي، "الإنسان يلتهم نفسه".- جريدة الرياض.- العدد (14192) الخميس 3 مايو 2007.

(11) وسيم الشريف، "مجاعة الموصل"، ص14.

4- أدى طول فترة المجاعة إلى وقوع حالات كثيرة لأكل لحوم البشر، فانتشرت الكانيبالية في جميع أرجاء البلاد حتى لم تبق قرية من قرى مصر لم يصبح فيها أكل لحوم البشر أمرًا مألوفًا، وذكرت الروايات مدنً بعينها: (أسوان، وقوص، والفيوم، والمحلة، ودمياط) أُكِلتَ فيها لحوم الآدميين أكلاً شنيعًا. كما تشكلت عصابات لخطف الصغار واصطياد الكبار في القاهرة والجيزة، وتفشت الكانيبالية بصفة خاصة في الإسكندرية. كما ظهرت تجارة جديدة هي الاتجار بلحوم البشر، في البداية لحوم الموتى، ثم لحوم مَنْ يتم اصطياده حيًا، وظهر هذا النوع من اللحوم في الأسواق.

5- ينبغي الحذر من تعميم ظاهرة الكانيبالية، وأنها قد امتدت في المجتمع طولاً وعرضًا، فالحالات البشعة التي رُويت، وأشكال الحيل والتخفي لممارسة القتل والأكل والبيع، ثم دور الدولة الأيوبية في متابعة أكلة لحوم البشر ومعاقبتهم بالقتل حرقًا، يشهد على وجود ظاهرة أكل لحوم البشر، كما يشهد على محدوديتها رغم ذلك، وأن انتشارها قد وقع بين مَنْ أعيتهم الحيل للبقاء وهم كُثر، لكن هناك أيضًا أوصاف لمَنْ كانوا يموتون جوعًا، وتُرى جثثهم الكثيرة وقد سقطت في الشوارع وداخل المنازل،[1] وهو ما يعزز الرأي بأن انتشار أخبار الظاهرة بحكم بشاعتها واستثنائيتها كانت شائعة، لكنها لا تعني قط شيوع الظاهرة نفسها في المجتمع المصري يومئذ.[2]

6- حولت المجاعة الإنسان إلى كائن لا إنساني، ففي البداية كان الاختيار مثقل بالإكراهات، بين أن يصبح الإنسان (ميتًا) أو أن يأكل ميت (إنسانًا)، وتلاشت الصدمة الأولى، وحل محلها الضرورة المتكررة،[3] فانخلع عن الطباع البشرية، فصاد وقتل وأكل إنسان (حي)، ومع طول فترة المجاعة غلبت عليه الطباع السبعية فتوحش، لكن ذلك لا ينسحب على كامل المجتمع، فأمام هذه الصورة القاتمة وجدت إشارات إلى أناس استنكروا تلك الفظائع التي قام بها معارفهم وأصدقائهم، "فارتاع وخرج فارًا"،[4] "امرأة أتته سافرة مذعورة".[5]

7- حاول البعض النأي بأهل مصر عن فظاعة الكانيبالية ونسبتها لأفارقه سود قدموا بثقافاتهم إلى مصر، والتقط إشارات نزرة وردت عند البغدادي للتدليل على أن أكل لحوم البشر قام به غرباء وليسوا أهل مصر،[6] إلا أن هذا الرأي جانب الصواب، صحيح أن البغدادي أشار إلى أن خلقًا عظيمًا من أهل السواد والأرياف دخل القاهرة هربًا من الجوع، وهي إشارة إلى فلاحين وأفارقه سود، لكنه ذكر أيضًا أن خلقا آخر هجر مصر وذهب إلى الشام والمغرب والعراق واليمن، لأن المجاعة أدركت مصر كلها وتواترت الأخبار بانتشار الموت، وكثرة الأكفان، وأُكلت لحوم البشر في كل مكان.[7]

8- لم يَقُم البغدادي بدور الأنثروبولوجي فيعين لنا أعراق مَنْ فعلوا ذلك،[8] ولم تحدد الروايات هُوِيَّةُ آكلي اللحوم الآدمية، فالإشارات إليهم جاءت عامة على نحو: (رجل، امرأة، صديق، الخبثاء، عطار، جماعة، صاحب المنزل، من نساء الأجناد، صعاليك، قوم، قوم آخرين، عجوز).[9]

9- أصابت المجاعة جموع الفقراء، ولم تصب أغنياء القوم بالحد الذي أضرت به الفقراء، فمن خلال أوصاف البغدادي يظهر بوضوح أنه كان شاهدًا متفحصًا لما يحدث دون أن يصيبه شيء من أزمة القحط وارتفاع الأسعار، فهو من الأعيان وقريبًا من أرباب الدولة،[10] أما الفقراء والمعوزين من الناس فقد أكل بعضهم بعضا، فكانت الكانيبالية من نصيبهم وحدهم، لم يعرفها إلا القليل من أغنياء القوم بدافع الحاجة والكثير منهم بدافع اللذة.

10- رسمت المجاعة للمرأة في هذه الظروف الاستثنائية صور مخالفة لصورتها المتواترة في التاريخ أو المتخيل الإنساني، فهي في سنة القحط

---

(1) محمد العاملي، المجاعة والوباء، ص158 – 159.

(2) أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص21.

(3) عبد العزيز غوردو، افتراس اللحوم، ص71.

(4)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.124.

(5)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.126.

(6) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مقدمة كتاب رحلة عبد اللطيف البغدادي، ص19.

(7) أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص21.

(8) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مقدمة كتاب رحلة عبد اللطيف البغدادي، ص19.

(9)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.119 – 129.

(10) أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص21.

والجوع ليست جنسًا لطيفًا، ولا كتلة حنان، ولا أما رؤومًا، بل مثلها مثل الرجل آكلة للحم الآدميين وفيهم زوجها وحفيدها وابنها،[1] بل كان للمرأة النصيب الأكبر في ارتكاب الكانيبالية، فعدد مَنْ أُنزلت بهم العقوبة لارتكاب هذه الجريمة أكثر من ثلاثين امرأة.

11- كانت الكانيبالية سببًا مباشرًا في اختفاء الأطفال أثناء سنوات المجاعة، فاقتناص وخطف الأطفال بدافع أكل لحومهم أمر تكرر الإشارة إليه أكثر من مرة في أخبار المجاعة، ومع الوقت أصبحت لحوم الأطفال من أزكي أنواع الطعام عند كثير من الطوائف، وكانت تؤكل للذة لا لضرورة المجاعة، واخترع الناس طرقًا عديدة لطهو هذه اللحوم وسلقها، وشيها، وتعبئتها، وحفظها في التوابل.

12- أثرت مجاعات العصور الوسطى بشكل غير مباشر تقريبًا على جميع الحرف والمهن،[2] فخلال فترة المجاعة في مصر فُقِدَ كثير من الأطباء، ذكر منهم البغدادي ثلاث حالات، بالإضافة إلى حالة رابعة لطبيب يهودي حاول المريض أكل خصيتيه بدافع الجوع، فكان الأطباء من أكثر الفئات التي وقعت في حيل الاستدراج إلى البيوت بدافع أكل لحومهم.

13- من الراجح أن الدولة الأيوبية غضت الطرف عن حالات الكانيبالية الفردية التي أُكِلَ فيها الأقارب والأصدقاء والجيران، وربما عن مَنْ صعب عليهم توفير لقمة العيش، لكن السلطات الحكومية والأجهزة التابعة لها عاقبت كل مَنْ تحول إلى مجرم يقتل الغرباء بدافع الأكل، أو يتاجر بلحوم البشر، وهاجمت كل الأماكن التي تم الإبلاغ عنها، وأصدرت أوامر شديدة تنص على قتل القاتل، لكن يبدو أن هذه الشدة والصرامة من قبل السلطات لم تجدِ نفعًا، لأن ارتكاب الكانيبالية كان قد صار أمرًا مألوفًا.[3]

14- جاء ردع مرتكب الكانيبالية من طرف السلطات مناسب للفعل المرتكب على وفق مبدأ تدرج العقوبة التي كانت كالتالي: (الحرق،[4] الضرب بالسوط،[5] القتل،[6] دفع فدية،[7] الحبس،[8] النفي[9])، ومن الملاحظ أن هذا التدرج كان متزامنًا مع ظهور الكانيبالية واختفائها، فعندما كانت هذه الفظائع بشعة في مبدأ الأمر كانت العقوبة الحرق، ولما امتدت المجاعة وأصبحت الكانيبالية من الأمور العادية كانت العقوبة دفع الفدية والحبس، وفي السنة التي انقطع فيها خبر آكل الأدميين كانت العقوبة الضرب والنفي.

15- أكل الفقراء والمعوزين من الناس لحوم البشر لإشباع نهمهم الغذائي، أما أغنياء القوم فكثيرًا منهم أكل اللحم الإنساني بدافع اللذة، فكانوا يؤثرون هذا النوع من اللحوم ويعتبرونه من مظاهر الترف والأبهة، منهم مَنْ قتل بنفسه ضيوفه وجيرانه وحصل على لحومهم، ومنهم مَنْ كان يستأجر بعض المجرمين والسفاحين ليصيدوا له الأطفال والشبان لتزدان موائدهم بلحومهم. وكان أرقى ما يقيمونه من مآدب في ظل أوقات المجاعة العصيبة هي المآدب التي يقدمون فيها هذا الصنف الفاخر من اللحوم البشرية، وكانوا لا يكتمون عن أصدقائهم من المدعوين حقيقة الأمر، بل كانوا يفخرون بذلك ويعدونه مبالغة في الحفاوة بالمدعوين وفي إكرامهم.

---

(1) أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص20.

(2) Fekri A. Hassan, "Droughts, Famine and the Collapse of the Old Kingdom: Re-Reading lpuwer".- The Archaeology and Artaf Ancient Egypt Essays in Honor of David B. O'Connor/ Edited by Zahi A. Hawass, Janet Richards.- Conseil Supreme Des Amiquites De L'egypte, Le Caire, 2007. (Volume I/ P. 361).

(3) مهدي قادر خضر، الأمن في مصر في العصر الأيوبي (567 – 655هـ/ 1171 – 1255م).- أربيل: مؤسسة موكرياني للبحوث والنشر، 2011. ص184. أحمد علي السري، "صورة المرأة"، ص20.

(4)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.120,123.

(5)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.123.

(6)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.125.

(7)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.126.

(8)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.127.

(9)Abdollatiphi compendium memorabilium Aegypti, P.145.